في تاريخنا الحديث :

مواقف حاسمة ...

(لمؤرخ معاصر)

في سجل الثورة المقدسة صفحات مشرقة من المجاهدة والتضامن ، والفداء .. يجدر بالقوم أن يرجعوا إليها ، وأن يقفوا عندها يتأملون ماضيهم ، ويتدبرون حاضرهم ، ويرسمون مستقبلهم : ليربطوا حلقات جهادهم الموصول .

كانت مصر يومئذ تمتحن بنار الثورة ، وكانت الطريق واضحة ، والأهداف واحدة ، فلم يكن أبالسة الاستعمار «وسماسرته» قد جعلوا من كراسي الحكم أصناماً بعد ..

وأراد اللورد كيرزون أن ينال من وطنية المصريين ، وأن يغمز ثورتنا أمام العالم ... وكانت جهودهم في لوزان وفرساي قد أثمرت ، وأقفل سدنة السلام وحراس العدالة أبواب مؤتمر الصلح في وجه مصر — هذا ، ولم يكن المداد الذي سطرت به أنشودة الدكتور ويلسون قد جف .. تلك الأنشودة الجميلة ، ذات الألحان الأربعة عشر التي كانت الأفيون الذي خدر الرأي العام في الشرق مدة الحرب الأولى . فلما وضعت هذه أوزارها ظن المصريون أن حقوقهم ستكون موضوع الاعتبار .. وإن هي إلا معركة فقهية بيننا وبين الانجليز .. ولكن القوم نازلونا بسلاح غير شريف ، وحملوا أعضاء مؤتمر الصلح على إهانة العدالة ؛ وأذاعت[1] « دار الحماية » في مصر اعتراف ويلسون بالحماية البريطانية على مصر .. ولم يفت ذلك في أعضاد المصريين ، ولم يزد النار المقدسة إلا اشتعالا ، وبذل الأعمام أموالهم وأرواحهم في تطهير الأرض الحرام من براثن الغرب ، وعصابات الاستعمار .

وأعلنت الأقدار هزيمة القوة فصرح اللورد كيرزون أن ثورة مصر إن هي إلا حركة معلولة يتجلها الغوغاء ... ولو قد كانت هذه الحركة جدية لاشترك فيها الموظفون وهم صفوة الأمة وأرشد

(١) ٢٢ إبريل ١٩١٩ .

الأحباش أو غير ذلك كما رأيت .

ولاشك عندي في أن هذه العناصر ، سبائية سميتها أم كانت مسخرة ومحرضة ، حرضها أناس كانوا يسعون منذ عهد الرسول إلى خلق الفتن وتفريق العرب إلى شيع وأقسام ، وأنها حاولت الكيد لمن كان يعرف فيه الحزم والعزم ، وأن مقتل الخليفة « عمر » لم يكن بتلك الصورة البسيطة الساذجة التي رسمها الأخباريون ، بل كان خطة منظمة مدبرة يعرف بها جماعة . وأن نفراً كان لهم اتصال وثيق بذلك الرجل الذي صنع تلك الآلة للفتك بالخليفة .

يكفيك أن تقرأ خبر « كعب الأحبار » مع « عمر بن الخطاب » لتعرف منه أن « كعباً » هذا كان يعرف المؤامرة وأن الخليفة أحس بذلك من حديث كعب . جاء كعب إلى عمر قبل مقتله فقال : يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام .

قال : وما يدريك ؟

قال كعب الأحبار : أجده في كتاب الله عز وجل التوراة .

فقال عمر : الله ! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ! ؟

فقال كعب : اللهم لا ، ولكني أجد صفتك وحليتك ، وأنه قد فنى أجلك .

فقال عمر : وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً !

فلما كان من الغد جاءه كعب فقال : يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان . ثم جاءه من غد الغد فقال : ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك إلى صبيحتها ، فلما كان الصبح خرج عمر وكان يوكل بالصفوف رجالا فإذا استوت جاء هو فكبر ، ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان فضربه في وسطه فضرب عمر ست ضربات (١) .

لا أدري هل تحسن الظن بعد ذلك « بكعب » وتقول معه إنه كان يجد كل شيء حتى القتل في التوراة ، أم أنك ستخرج وأنت به شاك وتقول كما قال عمر . الله ! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ! ؟

مرداد علي

(١) الطبري جـ ٥ ص ١٢

عناصرها ، وفى هذا السبيل أثنى على الموظفين أجمل الثناء لأنهم لم ينقطعوا عن أعمالهم أثناء الثورة التى اجتاحت البلاد .

وحاجّنا السير وليم برونيت فادعى أن الأقباط لم يستجيبوا لدعاة الإضراب ، وأشاع الثناء على الموظفين ، والإشادة بحسن سلوكهم .

ولكن مصر لم تشرب السم المسموم ، وإنما أكرهت الإنجليز على ابتلاع آرائهم ، ووضع ألسنتهم فى جيوبهم .. وكان رد البلاد عليهم حاسماً رائعاً :

فأما الأقباط فأكذبوا ادعاء الغاصبين ، وخرج القسيسون والرهبان إلى المساجد ، وخطب القمص سرجيوس فى الأزهر ، وفتحت الكنائس للشيوخ والعلماء ، ومشى مشيخة الأزهر يحملون بساط الرحمة فى جنازات الشهداء ، وخفقت الأعلام ذوات الصليب والهلال ، وتواصف الناس مقالات سينوت بك حنا « الوطنية ديننا ، والاستقلال حياتنا » ، وكانت ترانيم القوم قصيدة الشيخ ابراهيم سليمان :

الشيخ والقسيس قسيسان وإن تشأ فقل : هما شيخان .!!

كانت سياسة الاستعمار تريد تسليط البلد على نفسه ، وكانت ترمى إلى تشتيت قوته ، وتوجيه تيار الثورة فى غير مجراه ... ولكن مصر المتحدة لطمت هذه السياسة لطمة اليمة ، وعرفت كيف ترد سهام الإنجليز إليهم .. لم يكن فى مصر مسلمون وأقباط ، وإنما كان فيها مصريون : مصريون لهم صوت واحد يدوى بالاستقلال « وأن الوطن للجميع ، والدين للديان » .

وأما الموظفون فقد جاء ردهم على مزاعم الانجليز مفحماً ، وجاء فى أهرام أول إبريل سنة ١٩١٩ تحت عنوان المسألة المصرية فى مجلس النواب « أن العناصر الأكثر رزانة من السكان لا تستحسن هذه المظاهرات » . فأسرع هذا وأمثاله بالموظفين إلى الإصرار على دحض مزاعم المستعمرين ، وإسقاط حجتهم أمام العالم ، وكان الإضراب هو الرد البليغ الذى لا رد سواه . وكتبت أهرام ٢ إبريل سنة ١٩١٩ تحت عنوان شعور الموظفين « أنهم لاحظوا أن بعضهم أخطأ فى فهم شعورهم فى الأحوال الحاضرة فقرروا الإضراب عن العمل غداً (الخميس) ويوم السبت المقبل فى جميع الوزارات والمصالح » وعلى هذا يكون بدء الإضراب يوم الخميس الثالث من إبريل ، وعلى هذا جرى المنشور الحكومى الذى أذيع على الصحف فى أول مايو سنة ١٩١٩ عند ما أرادت الحكومة أن تؤاخذ الموظفين فتقطع رواتبهم أيام الإضراب ؛ فقد حدد منشور « الحقانية » أيام الإضراب وقدرها سبعة عشر يوماً من ٣ إلى ٥ إبريل ثم من ٩ إلى ٢٢ منه .

ويقول عبد الرحمن بك الرافعى : إن الإضراب بدأ بالفعل يوم الأربعاء ٢ إبريل ولكنه صار عاما يوم الخميس ٣ إبريل .

ويبدو أن الحركة قد بدأت قبل هذا . ولعل الموظفين لم ينتظموا أعمالهم من أواخر مارس بعد أن تناقلت شركات البرق خطاب اللورد كيرزن الذى أراد به أن يسعى بالمصريين بين أنفسهم حتى يكفيه بعضهم شر بعض ... ولكن الحركة لم تأخذ سبيلها إلى أسماع العالم إلا فى هذا التاريخ ربما اجتمع كبار الموظفين لتحديد الإضراب وتنظيمه ، وكتابة العرائض ، والموافقة عليها ، ورفعها إلى عظمة السلطان وإبلاغها الحكومة البريطانية . وكان للحركة قادة من أمثال عبد الرحمن فهمى ، وأمين الرافعى ، ومحمود سليمان باشا ، وعبدالله سليمان أباظه ؛ وكان من زعماء الموظفين على ماهر بك « صاحب المقام الرفيع » وحلمى عيسى بك « باشا » وزكى العرابى أفندى « باشا » وإبراهيم دسوقى أباظه أفندى « باشا » وأحمد شرف الدين أفندى « بك » والأستاذ عاطف بركات ، والأستاذ حسن نشأت .

وكان للحركة معاقل سرية كان من أهمها منزل الأستاذ ابراهيم دسوقى أباظه ، وعبد الهادى الجندى ، ومرقص الشربينى ... وفى هذا الجو تألق اسم البطل الشهيد أحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشى ، وظهر الخطيب المتدفق شكرى كيرشاه .

وفى يوم الأربعاء ٩ إبريل صدر الأمر رقم ٢٦ لدولة رشدى باشا بتأليف وزارته الرابعة ، وكانت حركة الموظفين قد بدأت بعد استقالة وزارته الثالثة ، وكانت استقالته هذه من المواقف الكريمة التى أيدت وجهة النظر المصرية ، وكان السير ونجت قد طلب إلى رشدى باشا أن يؤجل البت فى استقالته حتى يتصل بحكومته فى لندن لإقناعها بالسماح له ولعدلى باشا بالسفر إلى أوربة ، ولكنه أصر على أن يسمح بالسفر لكل من يشاء من المصريين .. وقبلت الحكومة البريطانية سفر الوزيرين دون أعضاء الوفد فاعتبر هذا رشدى باشا رفضاً لمطالب الوزارة الوطنية ، وأصر على استقالته ... فلما ألف وزارته الرابعة ظن أن الموظفين سيعاونونه ، ويعودون

إلى أعمالهم ... مادام الإضراب قد أعلن وأدى نتيجته ؛ وكان المنشور السلطانى قد أذيع فى يوم الثلاثاء ٨ إبريل بعودة النظام ورفع الحجر على سفر المصريين وإطلاق سراح زغلول ، وصدقى ، ومحمد محمود ، وحمد الباسل .

ولكن الموظفين أصروا على الاستمرار فى إضرابهم وألفوا لجنة من مندوبى الوزارات والمصالح من سبعة وخمسين عضوا .

وفى ١٠ إبريل(١) اجتمعت اللجنة بوزارة الحقانية فشرطت للعودة شروطا فيها كثير من التعنت ، ورفعوا بهذه الشروط قراراً إلى رشدى باشا . ويستدعى رئيس الوزراء زعماء الموظفين فيجيبون دعوته إلا على بك ماهر ، وفى هذا الاجتماع كرر الوزير للموظفين طلب فض الإضراب ولكنهم أصروا على موقفهم ، واشترطوا أن تعتزل الوزارة الحكم ... تلك الوزارة التى أيدت الثورة وكانت فى الجبهة الشعبية من يوم تأليفها .

وفى يوم الثلاثاء ١٥ إبريل طلعت الصحف ببيان آخر من رشدى باشا يدعو فيه الموظفين إلى العودة ، ويلقى عليهم مسؤولية الاستمرار فى الإضراب .. ونشرت جريدة المقطم يوم ١٨ إبريل سنة ١٩١٩ أن رشدى باشا استدعى بعض أعضاء لجنة الموظفين ، وناقشهم طويلا ، وبين لهم خطر الموقف ، وانفض الاجتماع دون الوصول إلى قرار نهائى .

ويقف رشدى باشا موقفاً كريماً فيقبل اعتزال الحكم إن كان ذلك رغبة الموظفين ، وأطلع الوزراء رؤساء الموظفين على نص كتاب الاستقالة قبل أن يرفعوه إلى عظمة السلطان .. وتتوالى الحوادث بسرعة فيجتمع بعض أعضاء لجنة الموظفين ويقررون العودة . كان ذلك يوم ٢١ إبريل ؛ وفى اليوم الثانى أذاع الجنرال اللنبى منشوراً يقضى باعتبار كل موظف مستقيلا إذا لم يعد إلى عمله

وأذيع المنشور فى الصحف — الاهرام ٢٣ / ٤ / ١٩١٩

وفى نفس هذا العدد تكذيب بتوقيع محمد عاطف بركات ومحمد زكى الإبراشى : « لا صحة لما جاء فى بعض المنشورات من أن اللجنة العليا للموظفين قد قررت الاستمرار فى الإضراب ...

إن حركة إضراب الموظفين عام ١٩ كانت حركة رائعة موفقة لولا أنهم تمادوا فيها بعد زوال أسبابها .

إنها قصة رائعة لم يحسنوا ختامها ... وحسبك أنها انتهت بسقوط وزارة رشدى وكان سقوطها خسارة كبيرة ... وفى نفس اليوم الذى عادوا فيه كان اعتراف ويلسون بالحماية الإنجليزية على مصر تتناوله شركات البرق فى العالم .

ولقد سحب هذه الحركة مواقف غاية فى النبل والشجاعة ، والإيثار ... فمن ذلك أن الإنجليز طلبوا إلى الوزارة اعتقال زعماء الحركة ونفيهم فأبت الوزارة هذا ، وردت على الإنجليز بأن « رؤساء الإضراب هم زهرة الشبيبة المصرية فلا نقبل أن يهانوا ، ولا نستطيع تحمل مسئولية اعتقالهم ، وإذا بدا لقوة أجنبية أن تعتقلهم فسنكون نحن « الوزراء » أول الثائرين ... »

والذين سموا بأيام الحماية ، وعهود المستشارين والإشراف ، واستئثارهم بالحكم والنفوذ يعرفون إلى أى حد كان رشدى باشا رجلا فذا ومثلا نادراً فى الشجاعة والاستبسال ، ويعرفون إلى أى حد ظلم الموظفون الرجل ، وحرموا حكومته من العون والتأييد ...

وأراد الإنجليز أن يأخذوا الموظفين بأضرابهم فجاء فى أهرام الخميس الأول من مايو سنة ١٩١٩ منشور الحقانية بعنوان « موظفو الحكومة أيام إضرابهم عن العمل » : تقرر مبدئيا قطع مرتب مدة الإضراب وقدرها سبعة عشر يوما من ٣ إلى ٥ إبريل ثم من ٩ إلى ٢٢ منه — من جميع الموظفين والمستخدمين الوطنيين مع حفظ الحق فى إبداء المعارضات . أما إعانة الرتب فتصرف كاملة طبقاً للتعليمات الخاصة بها »

وقبل الموظفون ذلك ، ولكنهم طالبوا ألا يعامل صغار الموظفين بذلك ... ويثور هؤلاء ويأبون أن يكونوا أقل من رؤسائهم بذلا وتضحية حتى يقنعهم الرؤساء بقطع الرواتب عن نصف مدة الاضراب .

هذه صفحة من تاريخ اليقظة المصرية تنفض من عليها غبار الليالى . وكم فى سجل الثورة المقدسة من صفحات يجدر بالمصريين أن يرجعوا إليها ، وأن يقفوا عندها ... ليتأملوا ما ضيعوا ، حتى يتدبروا حاضرهم ، ويرسموا مستقبلهم ... ويربطوا حلقات جهادهم الموصول ...

(مؤرخ)

(١) الاهرام والمقطم ١١ / ٤ سنة ١٩١٩